محمد فى (كتاب الأبطال)

ألف الكاتب الإنجليزى الكبير (توماس كارليل) كتاب: «الأبطال وعبادة البطولة» حيث اختار من أبطال العالم فى التاريخ الإنسانى من شرّفوا الإنسانية بكفاحهم المناضل فى شتى ميادين الحياة. وكان المثال الأعلى للنبى فى صورة البطل هو: محمد بن عبد الله حيث كشف الكاتب الكبير عن محاسن نادرة لرسول الله ﷺ. كاد التعصب الأعمى فى أوروبا يطمسها طمسًا ؛ كى تنصرف عنها عيون المنصفين ، وأنا لا أعرف فيما قرأتُ من الكُتب الأوروبية من خلع رداء التعصب فى حديثه عن نبى الإسلام قبل (كارليل) إذ كان من سلفه من المفكرين ، وفيهم من نعت بالفيلسوف ، أو بالمؤرخ الحجة ، وبالروائى الطائر الصيت (كدانتى) وغيرهم يشايعون أقوال الموتورين والحقدة دون فحص وتنقيب ، حتى ظهر «كتاب الأبطال» ، فمحى ظلمة الليل بنور الصباح! وأصاب بعض الناس بذهول فى أوروبا ، فحاروا فيما يقولونه عن (كارليل)؛ لأن الرجل مخلص صادق لا يبتغى فيما يقول زلفى من أحد ، وما كتبه فى الأبطال عن أمثال : (شكسبير وچيته وكروميل) يدل على صدق أمين ، يعترف به قارئه! ولا بد أن يكون هذا الصدق الأمين رائده فيما كتب عن رسول الله ، فكيف يؤمنون بما قال عن هؤلاء ، وتعمى عيونهم عن نور الحقيقة فيما كتب عن محمد!

لقد صدق شوقى أمير الشعراء حين قال :

إنّ الذى جعلَ الحقيقة علقمًا لم يُخْل من أهل الحقيقة جيلا !

وكارليل أحد طلاب الحقيقة الذى صدع بها فى أسماع الجاحدين .

ولا أطيل الوقوف عند رأى (كارليل) فى البطل ، حين جعله كل شىء فى قيادة الشعب وتوجيهه إلى الارتقاء ، معارضًا من يذهب إلى أن البيئة هى التى أوجدت البطل؛ فهى صاحبة الفضل الأول فى رسالته . لا أطيل الوقوف عند هذا النقاش المشتهر بين المفكرين ، فلكل وجهته التى يؤيدها بما يصطنعه من براهين ، ولكنى أحاول أن أنقل للقارئ العربى بعض هذه النفثات الحارة ، التى صدرت من قلب شجاع أمين ، فشفت صدور قوم مؤمنين . والرجل بما كتبه ليس أديبًا مؤرخًا فقط ، ولكنه صاحب رسالة عظمى فى دنيا الإبداع الفكرى ، تجعل الحقيقة وحدها هى الهدف الذى ينشده صاحب القلم ، وإن تخرص حوله الشانئون بما يأفكون ، فقد أصمّ أذنيه عن كل لغو سفيه! .

أذكر أن الكاتب الكبير الأستاذ «محمد السباعى» رحمه الله قد ترجم «كتاب الأبطال» فى العقد الثانى من القرن العشرين ، فدوّى صداه ، وتعددت طبعاته . ولكن لغة السباعى البيانية وجزالته الأسلوبية التى كانت بعض خصائصه الكتابية ، قد باعدت بينه وبين الأوساط من القراء ، فلم يتابعوه فى أفقه العالى ، وظلّ الكتاب وقفًا على خاصية المتأدبين الذين نهلوا فرائد الأدب من الأئمة المشتهرين فى العصور الزاهرة ، ثم جاء الأستاذ الفاضل (عبد الموجود عبد الحافظ) فنقل ما كتبه (كارليل) بأسلوب رائق شفاف تعجبت به الخاصة والعامة معًا ، ونشر ما ترجمه فى فصول متتابعة بمجلة الرسالة صادفت ارتياح القراء، وقربت الكاتب إلى الكافة من هؤلاء، وقد قرأت ما كتبه الأستاذ مرارًا ، فرأيت أن أعتمد على ترجمته السهلة الوافية ، غير جاحد سبق الأستاذ السباعى أو منتقص جلال أسلوبه وروعة مرتقاه !

بدأ الكاتب حديثه بوصف البيئة العربية ذات الصحراء الممتدة والحر اللافح ، والجدب الموحش ، تعيش بها عرب خفاف الحركة ثاقبو النظر ، أذكياء القلوب ، ولهم أخلاق حازمة تمنعهم من الانحدار النفسى ، وتصل بهم إلى ذروة الفضائل ، وتدفعهم إلى الكرم الفطرى دون افتعال ، فقد يجود العربى بكل ما يملك وفاءً لحق

ضيفه ، مع فصاحة لسان ينثر الحكمة البليغة فتتناقلها الأفواه . وقد نشأ محمد فى البيئة الأمية معتمدًا على فطرته الصافية وعقله المستنير ، ولا ضير عليه إن لم يكن يعرف علوم الأرض ، فقد كان فى غنى من نفسه عن كل معرفة ، وقد كان دائم التفكير فيما حوله ، يتجه ببصره نحو الكون العجيب ، محاولاً أن يستشف أسراره ، وقد ألح عليه التفكير ، فألزمه العزلة عن الناس ليتأمل هذا المحيط الزاخر بالعوالم ، وليعلل ما يهتدى إليه من خواطر تتصل بنشأة الكون ، واختلاف الليل والنهار ، مستمعًا إلى أصوات الكون الغامضة، وما تضم من الأسرار ، حتى انتهى إلى أن هذا الكون المنتظم بنجومه وشموسه وأنهاره وبحاره، وجباله وسهوله وزروعه ورماله، لابدّ أن يصدر عن إله أبدع نظمه وأكمل تدبيره ، وكانت جلسة الغار سبيله الهادى إلى ربه ، لأنها وحدة جياشة بالأحاسيس ، وليست وحدة صمّاء لا تنبض بفكر ثاقب ، أو تهدى إلى طريق مستقيم ، ثم مضى (كارليل) يتحدث عن الوحى الذى هبط مبشرًا بنور السماء ، وعن حيرة محمد ، وموقف زوجته فى رهبته وخوفه بما هو معروف لدى القارئ . ولكنّ تصوير الكاتب له يخلع عليه ثوبًا من الرواء ، يقول الكاتب: لقد عرف محمد لخديجة صنيعها ، فليس أروح لنفس المرء وأثلج لصدره من أن يجد شريكًا ينضم إليه فى اعتقاده ، ويقف بجانبه وقت المحنة . ثم استشهد بقول القائل : «ما رأيت شيئًا قط أوثق لاعتقادى ، وآكد ليقينى من أن ينضم إلىَّ إنسان آخر يوافقنى رأيى ويعتقد عقيدتى» .

ومضى يتحدث عن حلقات الكفاح الأولى وما لاقاه الرسول من متاعب شاقة قد كانت كفيلة بصده عن الدعوة ، لو لم يكن من ذوى العزم الصارم ، والثقة البالغة، حتى انتهى إلى حادث الهجرة ، وما قام به الرسول من كفاح حربى .

فقال فى قوة وحمية ، يردّ على من يأخذون على الإسلام أنه قام برد الاعتداء فى غزوات حامية ، لا مفر منها إزاء ما يتهدده من أخطار :

«لقد كان أمامه سبيل وعْر ، وقوم يملأ العناد قلوبهم ، فإذا لم يجدْ من نفسه قوةً على مجالدتهم كان مصير دعوته الزوال ، لقد كان يريد أن ينشر دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولكن ماذا يصنع أمام هذه الصعاب التى تعترض طريقه ، لقد عزم ابن الصحراء على أن يدافع عن دينه دفاع رجلٍ عربى كريم ، وكأنى أسمعه يقول: أما وقد أبت قريش إلا الحرب ، فلينظروا أىَ فتيان نحن؛ لقد استمر قومه فى ضلالتهم يسلبون وينهبون ويقتلون النفس التى حرم الله ، ويستبيحون الحرمات ، ويفاخرون بالمنكر يأتونه دون حياء! فما عليه إلا أن يجعل الفاصل بينهم وبينه حد السيف حتى تلين قناتهم مستسلمين ، وهكذا امتشق السيف ليقود قومه إلى النصر».

لقد تحدث الكثيرون عن انتشار الإسلام بالسيف ، واتخذوا ذلك دليلاً على الجبروت والطغيان ، وقد ردّ عليهم (كارليل) قائلاً: «لقد فات هؤلاء أن قوة هذا الدين هى التى أوجدت السيف ، هذا الدين الذى نشأ فى رأسٍ واحد ، وقد وجد العالم أجمعه يحول دون مبتغاه ، فإذا تناول السيف ليسمع الدنيا صوته القوى ، وحجته الدامغة ، نعتناه بالكذب، وانتقصنا منه دين دعوته!! إن هذا الدين ما انتصر إلا لأنه الحق؛ لأن الحق ينشر نفسه بنفسه دون حجاب! إن النصرانية لم تكن تتوانى فى استخدام السيف ، وحسب هؤلاء ما فعله (شرلمان) بقبائل الساكسون ، فلا ضير على الحق أن ينتشر سواء باللسان أم بالسنان ، لأن الحقائق يجب أن تنتشر ، ويمتد سلطانها سواء تم ذلك باللسان أم بالسنان ! إن الحرب بين الحق والباطل حرب لا حكم فيها إلا للطبيعة ، ونعم الحكم ما أعدله وأقسطه ، ولن نخشى على الحق الانهزام ، لأنه أعمق جذورًا ، وأكثر امتدادًا فى الطبيعة ، والزبدُ يذهب جفاء ويبقى ما ينفع الناس !

وبعد حديث شائق عن الكعبة ومنزلتها فى نفوس المسلمين ، اتجه الكاتب إلى صميم الرسالة الإسلامية ، فتحدث عن الإسلام ، معلنًا أن أكثر الناس فى أوروبا

لا يدركون جوهره الأصيل ، ولذلك يعلن لهم أن مادة الكلمة تدل على أنه هو الإذعان لأمر الله ورسوله ، والخضوع لحكمه . ومهما أصابنا من شيء فعلينا أن نتقبله بنفس راضية ، ووجه باش ، ونعلم أنه الخير ، ولولا ذلك ما اختاره الله ، وقد قال شاعر ألمانيا «جوتة» عندما عرف حقيقة الإسلام: «إذا كان هذا هو الإسلام ، وهذه تعاليمه ، فكلنا إذن مسلمون ، وذلك حقٌّ؛ لأن من كان شريفًا كريم الخلق قويّ اليقين ، فهو مسلم .

إن الإسلام والنصرانية دينان سماويّان ، ويجب علينا أن نفهم : أن الأديان السماوية تأمرنا بالتوكل على الله فى كل شيء ، وتبعاً لذلك يجب أن نزجر النفس عن الشهوات ، وننهى القلب عن الهوى والزيغ .

لقد جاء الإسلام والنصارى فرق وشيع يقيمون أسواق الجدال ، ويخطئ كل فريق منهم الآخر بالحجج الجائرة والبراهين الباطلة ، فكانوا بهذا يطعنون دينهم بأنفسهم من حيث يعلمون أولا يعلمون؛ حبًّا فى شهوة النصر ، كمن يخربون بيوتهم بأيديهم فجاء الإسلام على الملل الباطلة والنحل الكاذبة ،فدحضها وحق له أن يدحضها ، لأنها باطلة ، وهو حقيقة خارجة من قلب الطبيعة الصادقة ، وما كاد يظهر حتى زالت وثنيات العرب واختفت من الوجود ، وذهب كل مالم يكن حقًا ، وصار حطبًا التهمته نار الإسلام .

لقد اشتمل الإسلام على مبادئ عظيمة وقواعد جليلة ، والشيء الوحيد الذى يجب على الإنسان أن يلحظه هو اشتماله على روح الأديان جميعا . هذه الروح التى تلبس أثوابًا مختلفة ، وتتشكل بأشكال متعددة ، ولكنها فى الحقيقة شيء واحد .

أقول : لو كان (كارليل) قرأ قول الله عز وجل ، ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾[1] .

(١) سورة الشورة : آية ١٣)

أو كان قرأ قول الله عز وجل: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾[1] لو كان (كارليل) قرأ هذين النصين لاستشهد بهما فيكون استشهاده نورًا ساطعًا يضاف إلى ما ساق من آيات بينات .

وتابع الكاتب العظيم حديثه بقوله: «لا يكون الإنسان مصيبًا إلا إذا سار على منهاج الإسلام ؛ فهو الدين القويم ، وهو منهج الدنيا الذى يتمّ به الفلاح ، وإن من فضائل الإسلام التضحية بالنفس والمال ، وهذا لا شك أعظم وأشرف ما نزل من السماء على بنى البشر فى الأرض ، فالإسلام نور الله قد ظهر فى محمد ، ذلك الرجل العظيم ، فأنار الدنيا وبدد ظلماتها ، تلك الظلمات التى كانت تنذر بالخسران المبين .

وأفاض الكاتب فى حديث القوة والعدل ، وتأكيد ما يربى الناس على الطاعة والنظام والنظافة ، والأخذ بأسباب القوة والمنعة . وإن دينًا فيه الوضوء وإقامة الصلاة خمس مرات فى اليوم والصوم شهرًا كاملاً فى العام ، وتحريم الخمر والميسر ، لا يكون إلا دينًا يعمل لخير البشر جميعًا ، فدخول الناس فى الاسلام لم يكن لسهولته ويسره وقلة تكاليفه ، ومن الخطأ أن يعتقد بعض الكاتبين ذلك ، لأن اعتناق الإسلام لم يكن إلا لما يثير فى نفس المؤمن من عوامل الشرف والعظمة ، ولما يبعث فى نفسه من دواعى الشرف والبطولة فهو دين عزة وتربية ، وقوة ومنعة ، وليس أدلّ على ذلك من سرعة انتشاره فى أكثر بقاع الأرض فى أقل من قرن من الزمان !

وهكذا ، نرى الكاتب لا يفتأ يردّ على من افترى على الإسلام بأنه اشتهر بالسيف لا بمبادئه ، فجاء فى ذلك بالفلق المبين ، لئن أبدع الكاتب فى حديثه عن السرّ فى انتشار الإسلام ، فإن إبداعه فى الحديث عن مزايا القرآن الكريم لا يقلّ روعة عما تحدث به من قبل .

---

(١) سورة البقرة : آية ١٣٦)

يقول الكاتب بعد تمهيد سديد: لقد ادّعى كثير من الأوروبيين أن القرآن خالٍ من الجمال والروعة ، وفاتهم أن الترجمة هى التى أفقدته روعته ، وذهبت بكثير من حسن صياغته وجمال صنعته ، فإذا وجد غير العربى عناء ومشقة فى فهم أسراره ، فذلك لأن الترجمة لا تصل إلى الأصل فى صفاء تعبيره وروعة تصويره . أما العربى فيحسّ أعظم الإحساس بروعة الأسلوب وعظمة الأداء ، ولذلك قدّر العرب مكانته الأدبية ، وعظموه ، وجعلوه كتابًا مُعجزًا لا يأتى بشر بمثله ، ونال لديهم من التبجيل مالم ينلْه الإنجيل عند أتقى النصارى ، وقد عجزوا عن محاكاته حين تحدّاهم الله بقوله : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾، ومنذ نزل القرآن وهو قاعدة التشريع والعمل ، والقانون المتبع فى شئون الحياة وتشابكها ، وهو مصدر أحكام القضاة يرشدون به ويهتدون بهديه . وما أبعدَ الفرق بين القرآن والكتب الأخرى ، إن تلك الكتب أصبحت كلمات لا صلة لها بالله الذى أنزلها بعد أن شوّهها أهلُها بالتحريف والتزوير .

لقد اتهم بعض الحاقدين محمدًا بأنه هو الذى وضع القرآن ، وأن القرآن ليس إلا بعض الجمل البلاغية وهؤلاء قد أعماهم التعصب البغيض عن التمييز بين الحق والباطل . وقد آن لنا أن نردّ لهؤلاء أقوالهم فى نحورهم ، ليعرفوا أن الحق لابد أن ينتصر يومًا ؛ لأن من كان صادق الحسّ ، ثاقب النظر لن يرى فى القرآن ذلك الرأى الباطل الذى لا يصدر عن عاقل ، إن القرآن لو تدبرتموه لوجدتموه جمرات ذاكية من الحق والصدق ، إنها جمرات قذفت بها فى قلب محمد الكبير ، القوة القاهرة بعد أن أذكت هذه النفس فى الخلوات الصامتات .

ولو عرفنا سيرة محمد ، لوجدنا أن تدفق الأحداث من حوله ، يحول دون التنميق المفتعل ويا لها من خطوب كانت تحدق به من كل مكان ، فقد قضى عمره قطبًا لرحى حوادث ومصادمات قاسية فى عالم كله فتن وأهوال ، وإنى لأتصور هذا

القلب الكبير وهو يتململ ليله ساهرًا ، فإذا ظهرت له بارقة أمل استبشر وفرح بنزول الخير من عند الله . ومحال أن يكون هذا القلب الكبير قلب محتال أو تكون نفسه نفس مشعوذ دجال كما يزعم الجهلة الأفاكون ، لقد كان الكون فى نظره حقيقة كبرى تدل على قدرة الخالق العظيم الذى أحسن كل شىء خلقه .

أما إعجاز القرآن ففى فضائله التى يهتف بها ، وأنا لا أهتم كثيرًا بما جاء به من الصلوات والتحميد.. هكذا يقول (كارليل) ولا نوافقه عليه ولكنى لا أملك نفسى حين أجده ينفذ إلى أسرار الكون وبواطن الأمور فيقول للناس: ﴿ **قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ انظروا إلى السموات وكيف بناها ورصعها بالنجوم ، وإلى الأرض التى بسطها لتسلكوا فى مناكبها وتأكلوا من رزقه ، وقد جعلها قرارًا ، وجعل خلالها أنهارًا ، وأنبت فيها من كل زوج بهيج ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، ثم هذا السحاب المسخّر بين السماء والأرض ، والمطر الذى ينهمر فيحيى الأرض بعد موتها ، والسفن التى تلوح كأنها الجبال ، والأنعام التى تسقيكم مما فى بطونها من بين فرثٍ ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين ، ومن جلودها بيوت تستخفونها يوم ظعنكم وإقامتكم . لقد أفاض الكاتب فى هذا المنحى إفاضة تدل على أنه استقصى النعم التى سجلها القرآن الكريم استقصاء نيّرًا بصيرًا ، أما خلق الإنسان من سلالة من طين ، وتحوله إلى نطفة فعلقة فمضغة فقد أشار إليه فى روعة ليختم حديثه الجامع قائلا: أليس كلّ هذه آيات ناصعات تدل على قدرة الله ، وعلى أن هذا الكتاب من لدن قوى كبير يدبر الكون وفق نهج قديم! ولا ينكر هذا إلا جاهل متعصب .

ثم أفاض الكاتب فى حديث القرآن الكريم عن الجنة والنار ، فنقل من الآيات الكريمة ما يبدو جديدًا لروعته الخالبة ترهيبًا وترغيبًا للقارئ المسلم وغير المسلم ، ليخلص من ذلك إلى حقيقة عظيمة هى: أن الدار الدنيا دار عمل وكفاح ، وأن الثواب الخالص للمحسنين جزاءً بما كانوا يعملون ، والعقاب الصارم لذوى الآثام

جزاءً بما كانوا يقترفون ، وأن كل هذه الأشياء تبين لنا قيمة الإنسان فى الحياة الدنيا ، وأنه لم يخلق عبثًا ، فقد ألقيت عليه واجبات لابد من أدائها ، كل عمل إنسانى له قيمته مهما صغر ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره .

ومن دقيق ما أكده الكاتب قوله: يأخذ البعض على الصورة التى رسمها القرآن للجنة والنار ، فغلَّب الحسية والمادية عليها ، ولكن فات هؤلاء أن الصور التى رسمها القرآن ليست حسية مادية ، لأن القرآن روحانى سماوى ، وكل ما جاء فيه بصدد ذلك تلميحٌ وإيحاء والعيب فى ذلك هو عيب المفسرين والشرّاح الذين أطالوا فى تصوير المتع الحسية إطالة تدل على أنها كل شىء فلم يدعوا لشهوة حسية ، ولا لذة جنسية إلا ألحقوها بالجنة ؛ ظنًا منهم أن هذا يجذب الناس للأعمال الصالحة كما لم يتركوا عذابًا بدنيًّا ولا ألمًا حسيًّا إلا حاولوا إسناده إلى النار ، ظنا منهم أنّ هذا هو أشد رادعٍ عن المنكرات . وكان الرجلُ موفقًا كل التوفيق حين استشهد بمثل قول الله تعالى «عن أصحاب الجنة» ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾، وقوله عز وجل: ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ، فأى رذيلة أشدّ خبثًا من الغلّ والحسد ؟ فإذا نُزِع ما فى الصدور من الغل والحسد صارت الحياة أهنأ وألذ كأنما هى الجنة التى أرادها الله ، وإن السلام والأمن والتصافى أشياء جليلة حفل بها الكتاب الكريم .

وأحبّ أن أضيف شيئًا يسيرًا حول هذا الاتجاه الخلقى الذى صوره الكاتب الكبير مأخوذًا من كتابنا الكريم ، فأقول: إن تصوير الماديات كما جاءت فى القرآن لا تعنى الانهماك فى اللذائذ والشهوات ، ولكنه يعنى أن للجسم حقه من هذه المتع ، وهو يتطلع إليها بتكوينه الطبيعى ، فلا يحرم من شىء وهو من مقوماته جسميًّا ونفسيًّا ، لذلك عرض الله هذه الصور المادية لأنها حاجات من حاجات الجسم دون مراء ، والعيب كل العيب هو الإفراط فيها ، والمؤمن الذى يرى وجه ربه فى الجنة

لا يأخذ من هذه الأشياء إلا بقدر الحاجة الضرورية ، ولا يحسب أنها باتت شغله الشاغل ، وهنا تتوازى الكفتان !

ومن أروع وأبدع ما خطه الكاتب الكبير : حديثه عن إخلاص رسول الله وصدقه ، فقد هاله أن يفترى أعداؤه الكذب عليه حقدًا وحسدًا ، فجعلوا ينتقصون فضائله اللائحة للعيان ، ولو عقلوا لأراحوا أنفسهم مما يأفكون ، والمتعصبون من أعداء نبيِّ الإسلام يسوؤهم أن تظهر حسناته على وجهها الصحيح ، وقد بهرهم نجاحه فحاولوا أن يطمسوا لألاءه بقولهم: إنه كان يريد المصلحة الشخصية لذاته والوصول إلى قمة الجاه والسلطان وحب السيطرة على النفوس ، وقد غلوا فى ذلك غلوًّا لا يصدّقه عقل ، وقد فاجأهم الكاتب بما عُرِف عنه ﷺ من أنّ قريشًا عرضت عليه الملك فأبى ، وقدمت إليه ما تملك من خزائن المال رجاء أن يتنازل عن دعوته فرفض ، فبينما كان الآخرون يتكالبون على الرئاسة والجاه ، كان ينفرد بنفسه مفكرًا فى حقائق الأشياء ومفاسد البشرية التى يجب القضاء عليها ، وكان سر الوجود يسطع لعينه ، ناظرًا ما يتهدده من المخاوف . ولكن ثقته فى الله تمده بروح من عنده ، لقد ظل قبل البعثة يتفكر فى الحياة وما قيمتها ، وفى الموت وما بعده ، وفى الأصنام الحجرية وما جدوى عبادتها ، فجاءه الجواب الحاسم فى قول الله : ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ۝١٦ ﴾ لقد عاش محمد حياته الأولى غاديًا رائحًا ، ولكنه فى الحقيقة كان يعيش فى وادٍ من التفكير المنظم والنظر الثاقب ، وقومه فى ضلالهم يعمهون ، أفبعد هذا يزعم الكاذبون الحاسدون أنه كان يطمع فى الجاه والسلطان ، أى فائدة لرجل مثل محمد فى جميع بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها ! وأى خير له فى تاج كسرى وقيصر ، وجميع ما فى الأرض من عروش وهو يعرف المصير المحتوم لكل إنسان ، إذ إن كل من عليها فان ، لقد أصبح من أكبر عار البشرية أن تصغى لأراجيف

المفترين ، وأصبح من الواجب على أصحاب الحقيقة أن يكشفوا عن حسد من يلصقون التهم الكاذبة بنبى كريم ، وهل يعقل أن رجلاً كاذبًا خادعًا يستطيع أن ينشر دينًا رائعًا بين الناس ويبدع أروع الأحكام ، وأحسن القوانين ، إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يقيم بيتًا من الطوب وهو لا يعرف مواد البناء إذ لا تلبث ريح عاصفة أن تمحقه محقًا ، وبناء الإسلام ثابت كالطود تهب عليه الأعاصير فلا يتزعزع؛ أيكون من بناه كاذبًا خادعًا؟ لقد كتب (كارليل) أبدع السطور فى تحليل رسالة الإسلام ، وتمجيد الرسول الأعظم بما يجب أن يطالعه كل قارئ لأنّ هذه الصفحات القليلة التى أسطرها تلخيصٌ مبتسر بل أخشى أن يكون مشوّهًا لحقائق ساطعة تجلت فى نفثات هذا الكاتب الفياض ذى الحمية الصادقة ، ولعلى أكون قد أفلحت فى شىء واحد ، هو أن أجذب القارئ إلى مطالعة الأصل فى الإنجليزية إذا كان يحذفها ، وفيما ترجمه الأساتذة العرب من صفحاته الخالدات . وأكرر أنى اعتمدت على ترجمة الأستاذ (عبد الموجود عبد الحافظ) ، ولن أوفيه حقه من الثناء ، فهو جدير بكل تقدير ، ومن المناسب أن أختم هذه السطور بقول الأستاذ الكبير (عباس محمود العقاد) :

«لقد كانت كتابة (كارليل) متسمة بسمة الإعجاب والإنصاف ، ولا ينتظر من فيلسوف غير مسلم أن يكتب خيرًا منها عن نبى الإسلام ، ويكفى للدلالة على موقف (كارليل) أنّه أراد أن يختار مثلاً واحدًا للبطولة فى صورة نبى ، فلم يجد أحق بالاختيار فى هذا المجال من نبى الإسلام ، وكان من همه أن يفنّد كل شبهة شائعة عن الإسلام فى مبدئها ، فقال: إن الذين يزعمون أنّ محمدًا نشر دعوته بالسيف لا يتصورون ما يقولون ، إذ كانت دعوة محمد دعوة رجل واحد أمام قوم مجمعين على تكذيبه ، وليس أعجب من صورة رجلٍ واحد ، يحمل السيف ليقنع به كل منكريه !

أذكر أن بعض الناقدين قد أخذ على (كارليل) أنه فى حديثه عن الرسول ﷺ قد أخذ وجهة المحامى الذى يدافع عن إنسان ، ولم يأخذ وجهة القاضى الذى ينظر

إلى جميع الزوايا المختلفة وهو مأخذ فى غير موضعه ؛ لأن (كارليل) قد شاهد ظلمًا فادحًا من كتّاب الغرب يحيق ببطل مرموق كان فى رأيه المثل الأعلى للنبوة فانبرى للحديث عنه ؛ ليكشف ما لحقه من افتراء ، ولو وجد ما يؤاخذه عليه لذكره فى إخلاص كما فعل فى كتابه هذا مع غير رسول الله! كما أن لغة الأدب التى اصطنعها فى حديثه ليست مما ينتقد ؛ فالمؤرخ الأديب له من سعة أفقه ولطافة حسّه ، ورائع تصوره ما ليس لمؤرخ لا هم له إلا ترتيب الوقائع ومراجعة الأسانيد ؛ ليخرج بنتيجة أشبه بالرقم الحسابى الجاف دون أن يترك لدى قارئه صدى قويًّا ينقل إليه إحساس الكاتب ومشاعره فينفعل بما يفتعل به متى وجد لوائح الصدق النزيه ، والصور البيانية فى الأسلوب تقع موقعها إذا كانت لباسًا قويًّا للحقائق الخالدة ، ولم تكن بهرجًا زائفًا ينكشف أمام التفكير كما ينكشف الضباب عن وجه الشمس متى غمره نورها الأخّاذ ، وتتجلى ثقافة الكاتب الرفيعة ، ومعلوماته المتشعبة فى ثنايا أسلوبه بحيث تؤلف نسيجًا محكمًا فى ثوب متصل الخيوط متناسق الألوان ، وهو من المتانة والرصانة بحيث تزيده هذه الظلال الأدبية جمالاً ورونقًا ، وليقرأ القارئ قول (كارليل) فى بعض سبحاته :

«إن سلطان الله وعظمته لا يزالان واضحين لعينى محمد، فكل مكان أمامه مملوءٌ بقوة مجهولة، ورونق باهر أخاذ ؛ لأنّ هذا الكون هو الحقيقة الصادقة، والجوهر القوى وهو ما يسميه علماء العصر الحديث بالقوى والمادة ، ولكنهم لا يرونه شيئًا مقدسًا كما يراه محمد، بل إنهم لا يرونه واحدًا، فى أشياء متعددة، تباع وتشترى بالدرهم والدينار، ولا ينظرون إليه على أنه سرٌّ من أسرار الكون، والعلوم الحديثة من كيماويات وحسابيات قد أنست الناس ما يكمن فى الكائنات من سرٍّ إلهى يدل على عظمة الخالق، فما أشدّ هذه الغفلة لأننا إذا نسينا قوى الله فى العالم فأىُّ الأمور يستحق الذكر، فلولا سرّ الله لما كانت هذه الكائنات إلا خشبًا يابسًا ليست بالشجرة النامية التى لا تبرح تعطينا الثمر . وإذا ابتعد الإنسان عن فهم الأثر الإلهى

فى الكون لوجد العلم شقشقة كاذبة، وبقلة ذابلة ؛ لذلك كان محمد يرى العالم آية منظورة ملموسة تنطق بوجود الله ، بل إن هذا العالم هو ظلّ الله الذى علقه على صدر الفضاء، وكان يقول: إن الجبال هى أوتاد الأرض، وهى رغم عظمتها وشموخها ستصير يوم القيامة كالعهن المنفوش كما يكون الناس كالفراش المبثوث ، وستصدع الأرض وتذهب فى الفضاء هباءً منثورًا ، لقد كان (كارليل) عالمًا فاحصًا بمخبره، قبل أن يكون كاتبًا مبدعًا بيراعه .

* * *